

مكتبة الجاهلي
إلى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
٢٥٥ - ١٥٠

بمحقق وشرح
عبد الله محمد

الكتاب الثاني

البيان والبيان

الجزء الأول

الناشر مكتبة النخاسي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الخالجي

للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب . ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة السابعة

١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م

إهداء

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَبْقَاكَ وَأَمْتَعَ بِكَ ، وَجَعَلَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ
مِنْ وَدٍّ مَوْصُولًا أَبَدَ الدَّهْرِ ، فَقَدْ عَرَفْتُكَ صَدِيقًا
لَا يَشُوبُ صَدَاقَهُ زَيْفٌ مِنْ شَوَائِبِ الدُّنْيَا ، وَعَرَفْتُكَ عَلَى تَقَادُومِ
العَهْدِ وَتَطَاوُلِ الزَّمَانِ ، أَخَا ثَابِتِ الْإِخَاءِ وَثِقَ النَّفْسِ ،
لَيْسَ كَمَنْ يَدُورُ بِخُلُقِهِ بَيْنَ النَّاسِ مُلْتَمِسًا بِهَا الْغَنَمَ ، وَبَاعِيًا
بِهَا النَّفْعَ ، فَكَانَ ذَلِكَ ، أَيَّدَكَ اللَّهُ ، مِمَّا أَكْبَرَكَ فِي عَيْنِي ،
وَأَعْظَمَكَ فِي نَفْسِي ، وَلَبَسْتَنِي أَنْ أُقَدِّمَ إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ لِخَالِدِ
لِئَرَى فِيهِ ، وَلِنَعْلَمَ أَيُّهَا السَّمِيُّ الْكَرِيمُ ، أَنِّي أَخْفَظُ لَكَ فِي نَفْسِي
مِثْلَ مَا تَحْفَظُ لِي مِنْ وَفَاءٍ ، وَأَطْوَى لَكَ صَدْرِي
عَلَى مِثْلِ مَا تَطْوِي مِنْ وِلَاءٍ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - عرض الكتاب

وهذا الكتاب هو الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة الجاحظ التي أخذت نفسى بإخراجها وجلائها على الناس ، وهو ، لا جرم ، أسير كتب أبى عثمان وأكثرها تداولاً ، وأعظمها نفعاً وعائدة ؛ فيه تخرّج كثير من الأدباء ، واستقامت ألسنهم على الطريقة المثلى . فهو أستاذ أرهاط متعاقبة من المتأدين ، وهو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا ذوقهم بصقال الجاحظ ، ورفعوا فتنهم بالتأمل فى فنه وعبقريته .

٢ - بعض أقوال القدماء

فيه يقول أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ^(١) فى الصنائع ، عند الكلام على كتب البلاغة : « وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة . إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ، مبثوثة فى تصاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائته ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير » .

وهو كلام رجل قد خبر الكتاب ورازه ، ولكنه لم يشأ أن يرسم لنا صورة مفصلة واضحة .

(١) توفى نحو سنة ٣٩٥ .

وابن رشيق القيرواني (٣٩٠ — ٤٦٣) في العمدة ^(١) يقول : « وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ — وهو علامة وقته — الجهد ، وصنع كتابا لا يُبلغ جودة وفضلا ، ثم ما ادعى إحاطته بهذا الفن ؛ لكثرة ، وأن كلام الناس لا يُحيط به إلا الله عز وجل » .

أما ابن خلدون المغربي (٧٣٢ — ٨٠٨) فيسجل لنا رأى قدماء العلماء في هذا الكتاب ؛ إذ يقول عند الكلام على علم الأدب ^(٢) : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهى أدب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها » .

٣ — تفصيل الكتاب

إنّ دأب الجاحظ في تأليفه أن يرسل نفسه على سجيّتها ، فهو لا يتقيد بنظام محكم يترسّمه ، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه ، ولذلك تراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا ، ثم يدعها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل . وقد كانت هذه سبيل كثير من علماء دهره ، كما أن علوّ سنه وجِدّة التأليف في تلك الأبحاث التى طرّقها ، كل أولئك كان شفيعاً له في هذا الاسترسال والانطلاق .

وكان أبو عثمان يشعر بذلك ويعتذر عنه أحياناً ، فهو يقول عند الكلام على البيان ^(٣) : « وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التدبير » .

(١) العمدة (١ : ١٧١) في باب البيان .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٨٠٥ .

(٣) الجزء الأول ص ٧٦ .

وهو يَعُدُّ في أواخر هذا الجزء ^(١) أن يتكلم في الجزء الثاني على طعن الشعوبية على العرب في اتخاذ المِخْصَرَة ، ثم يحاول الوفاء بما وعد ، في الجزء الثاني ، ولكنه يرى أن الفرصة لم تسنح له بعد ، فيعتذر بقوله : ولكننا أحببنا أن نصُدِّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلَّة من التابعين . ويمضى الجزء الثاني بأكمله ، ولا يستطيع صاحبنا الوفاء بما وعد به إلا في صدر الجزء الثالث من الكتاب .

ونحن نستطيع أن نردِّ مباحث الكتاب وقضاياها إلى الضروب التالية :

- (١) البيان والبلاغة (٢) القواعد البلاغية (٣) القول في مذهب الوسط (٤) الخطابة (٥) الشعر (٦) الأسجاع (٧) نماذج من الوصايا والرسائل (٨) طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم (٩) عَرَضٌ لبعض كلام النوكي والحمقى ونواديرهم (١٠) ضروب من الاختيارات البلاغية .

البيان والبلاغة :

تحدث الجاحظ في تعريف البيان ، وساق في تفصيل أنواع الدلالات البيانية من اللفظ ، والإشارة ، والعقد ، والنَّصْبَة ^(٢) . وعقد أبواباً لمُدح اللسان والبيان ^(٣) ، وصنع موازنة بين لغة العامة والحضرين والبدويين ^(٤) ، ونوه تنويعها بصحة لغة الأعراب في عصره ^(٥) ، وروى مقطَّعات من نوادر الأعراب وأشعارهم ^(٦) وتحدث في لُكْنَة النبط والروم ^(٧) ، وعَرَضَ نماذج من كلام الموالى ^(٨) ، وعقد في الجزء الثاني باباً للحن وأخبار اللحنين ، بعد أن تكلم

(٢) انظر ١ : ٧٥ .

(٤) ١ : ١٢٠ .

(٦) الجزء الثالث .

(٨) ١ : ١٦١ — ١٦٥ .

(١) الجزء الأول ص ٣٨٣ .

(٣) ١ : ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٩٢ .

(٥) ١ : ١٥٧ .

(٧) ١ : ٧٠ .

في الجزء الأول^(١) على اللحن ومتى يُستملح ومتى يُستهجن . وفي الجزء الثاني عرض صوراً من صور العي والحصر ، وبسط مذهباً له في وجوب أداء القصص والنوادر كما هي ، إن معربة فمعربة ، أو ملحونة فملحونة ، زاعماً أن الإعراب يفسد نوادر المولدين .

ولم ينس أن يسوق في صدر كتابه طائفة من الآيات التي تنوّه بشأن البيان والبلاغة ، ثم يعيد الكرة في الحث على البيان والتبيين^(٢) ، إذ يقول : « وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ... » .

وهو لا يُغفل أن يتكلم في مخارج الحروف ، ويبيّن أثر سعة الشدق وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها في البيان^(٣) ، وكذلك أثر لحم اللثة^(٤) ، وكذا أثر سقوط الأسنان ، وينقل قول محمد الرومي^(٥) : « قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها » .

ويعقد باباً للحروف التي تدخلها اللثغة ، ويبيّن : أي لثغة أشنع وأيها أظرف^(٦) . ولعل الذي دفعه إلى ذلك ما كان معروفاً من لثغة واصل بن عطاء المعتزل ، الذي حاول أن يعتذر له ، وأن يجعل من هذا النقص الذي كان يتغلب عليه ، كلاً وعبقريّة يسوق فيها الدليل إثر الدليل^(٧) .

وهو كذلك يروى طائفة صالحة من أخبار البلغاء والخطباء والأئمة والفقهاء والأمراء^(٨) ، ومن جمع بين الخطابة والشعر^(٩) ، ويعرض نماذج من كلام الرسول في صدر الجزء الثاني^(١٠) ، كما عقد باباً للغز في الجواب في ذاك الجزء . فإذا ما حاول الكلام في البلاغة ، وهي المرتبة التي فوق البيان ، ذهب

(١) ١ : ١٤٦ . (٢) ١ : ١٤٥ . (٣) ١ : ٢٠٠ . (٤) ١ : ٥٨ .

(٥) ١ : ٦١ . (٦) ١ : ٦١ . (٧) ١ : ٦٤ .

(٨) ١ : ١٤ . (٩) ١ : ٩٨ . (١٠) ١ : ٥١ .

يسرُّ تعريفها عند الفرس والروم والهند ، والأعراب ، وأعلام البلغاء ، كالعناني وسهل بن هارون ، وعمرو بن عبيد ، وابن المقفع ^(١) . ثم لا يرضيه ذلك حتى يظفر بترجمة لصحيفة هندية ترسم حدود البلاغة وتبين أصولها ^(٢) .

ولم يتعرض لمسائل البلاغة التي عرفت فيما بعد ، إلا ما قدَّم من كلام في تنافر الحروف واثلاثها ^(٣) ، وكذلك وجوب مراعاة مقتضى الحال ^(٤) . وهو يتكلم في الإيجاز والإطناب ويبيِّن المواضع الصالحة لكل منهما ^(٥) ، ويروى لنا الشعر الذي يمدح فيه الشعراء الإيجاز ^(٦) . ويتكلم في المشاكلة البديعية ، ويعرض فيها أمثلة من القرآن والشعر ^(٧) .

القول في مذهب الوسط :

يستطيع المتصفح لهذا الكتاب أن يلمح للجاحظ مجهوداً طريفاً ، فهو قد عقد باباً للصمت والحث عليه ^(٨) ، ويحكى أقوال المعارضين لأصحاب الخطابة والبلاغة الذين يفضلون هذا الصمت ^(٩) ، ويخصص باباً آخر يقذف فيه بطائفة من كلام المغريرين وأصحاب التقعير ^(١٠) ، وأبواباً أخرى في مديح اللسان وشدة العارضة ^(١١) ولكنه لا يرضيه هؤلاء ولا أولئك ، بل يرى أن كلا منهما قد جنح إلى غير الصواب ، وأن الصواب والخير كله في إصابة القدر في الكلام ^(١٢) ، وأن تكون الألفاظ والمعاني أوساطاً بين بين ^(١٣) .

(٣) ١ : ٦٩ .

(٦) ١ : ٢٧٦ .

(٢) ١ : ٩٢ .

(٥) ١ : ١٤٩ .

(٨) ١ : ١٩٤ .

(١٠) ١ : ٣٧٧ .

(١٢) ١ : ٢٧٧ .

(١) ١ : ٨٨ .

(٤) ١ : ١٤٩ .

(٧) ١ : ١٥٢ .

(٩) ١ : ٢٦٩ .

(١١) ١ : ٢٣١ ، ٢١٢ ، ١٦٦ .

(١٣) ١ : ٢٥٥ .

الخطابة :

وقد عني الجاحظ بهذا الفن عناية خاصة . ولا غرو ، فالخطابة دِعامَة من دعائم الدعوة . وكان المعتزلة يلجئون إلى الخطابة والجدال في تأييد أمرهم ، وبيان مذهبهم ومقالاتهم ^(١) . فهو يرسم للخطابة أدبا يستحسن فيه أن يقتبس القرآن والشعر ^(٢) ، ويبين ما ينبغي اتباعه في ضروب من الخطب ، كخطبة النكاح ^(٣) ، وما تتطلبه الخطابة من الجهر بالقول وترفع الصوت ، ذاكرًا في ذلك الخبر والمثل ^(٤) ومن عُرف بجَهارة الصوت ^(٥) ، وهو يسترسل فيذكر أن الروم أهل جَهارة ، وينقل خبراً غريباً : « لولا ضجة أهل رومية وأصواتهم لسمع الناس جميعاً صوتَ وجوبِ القرص في المغرب ^(٦) » . ويتكلم في الدمامة ومدى أثرها في قدر الخطيب والشاعر ^(٧) ، ويتعرض للخلاف في تأثير حركة الخطيب وإشارته ، أو سكونه وهدهوء جوارحه ، في سامعيه ^(٨) . ويتكلم في استعمال الخناصر والعصى في الخطبة ^(٩) وطعن الشعوبية على العرب في ذلك ^(١٠) ، ويذكر أسماء الخطباء وقبائلهم وأنسابهم ^(١١) وأخبار خطباء الخوارج خاصة ^(١٢) ، كما عقد باباً لأسماء الكهّان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان ^(١٣) ، وكما نوه بخصلة إيراد وتيميم في الخطب ^(١٤) . وهو في أثناء ذلك يسرد مختارات قوية من خطب الرسول والخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، وكذا خطب رجالات الخوارج وأهل الدعوة .

(١) ١ : ١٤ .	(٢) ١ : ١١٨ .
(٣) ١ : ١١٦ .	(٤) ١ : ١٢٠ .
(٥) ١ : ١٢٣ .	(٦) ١ : ١٣٣ .
(٧) ١ : ٢٣٧ .	(٨) ١ : ٩١ .
(٩) ١ : ٣٧٠ .	(١٠) ١ : ٢٨٣ ثم أول الثاني ، ثم أول الثالث .
(١١) ١ : ٣٠٧ .	(١٢) الجزء الثالث .
(١٣) ١ : ٣٥٨ .	(١٤) ١ : ٥٢ .

الشعر

والشعر وسيلة من وسائل البيان ، ومعرض من معارض البلاغة ، وله ميسم يبقى على الدهر في المدح والهجاء ^(١) ، وله أوزان لا بد منها ولا بد من القصد إليها ؛ فمن جاء كلامه على وزن الشعر ولم يتعمد هو هذا الوزن فليس كلامه بشعر ، فقد ورد القرآن وفي الحديث كلام موزون على أعاريض الشعر ولكنه لا يسمى شعرا ^(٢) . ومن يجمع بين الشعر والخطابة قليل ^(٣) . وليس ينبغي للقصيد أن تكون كلها أمثالا وحكما ، فإنها إذا كانت كذلك لم تسر ولم تجر مجرى النودار ^(٤) وفي المولدين شعراء مطبوعون ^(٥) ، وللشعراء رسوم خاصة ^(٦) ، وقد كان بعض أبيات الشعر سبياً من أسباب تسمية الشاعر ^(٧) . والشعر خير الوسائل لتخليد الإنتاج الفني ، « فما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولاضاع من الموزون عُشره ^(٨) » .

السجع :

وهذا الفن من البيان يثير خلافا بين العلماء والأدباء والديانين ؛ فهناك حديث : « أسجع كسجع الجاهلية ؟ ! » . فهو في ظاهره حجة لمن يرفض استعمال هذا الفن ويستهجنه ، وهو عند التأويل محمول على السجع الذي يراد به إبطال الحق ^(٩) . على أن من الأدباء من يرى أن السجع إنما كان منهياً عنه في نأنة الإسلام ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، حيث كان السجع يجري في

(٢) ١ : ٢٨٧ - ٢٨٩ .

(٤) ١ : ٢٠٦ .

(٦) ١ : ٩٣ .

(٨) ١ : ٢٨٧ .

(١) ١ : ١٥٦ .

(٣) ١ : ٤٥ .

(٥) ١ : ٥٠ .

(٧) ١ : ٣٧٤ .

(٩) ١ : ٢٨٧ .

الكهانة والترجيم بالغيب ، فلما زالت العلة زال التحريم ^(١) . ولهذا شبّه في النهي عن مرثية ابن أبى الصلت لقتلى أهل بدر في أول الأمر ، فلما زالت العلة زال النهي ^(٢) . ويسوق الجاحظ من بعد ذلك ماثورا من متخير السجع وبديعه ^(٣) .

الرسائل والوصايا :

ولقد كانت الرسائل والوصايا مظهرا من مظاهر البيان العربى ، فهو ينثر في تضاعيف كتابه قدراً صالحا مختاراً منها ^(٤) ، لتكون إماما يحتذى ، وقالبا يُصاغ عليه القول .

النسك والقصاص :

وللنسك حظ وافر من عناية الجاحظ في الكتاب . فهؤلاء النسك الروحيون قد نبغ منهم نوابغ في البيان ، فهم قوم قد لانت ألسنتهم ودق إحساسهم ، بما حفظوا كلام الله وحديث الرسول ، وهم قد تصدوا لوعظ العامة والتأثير فيهم ببلغ القول وحسن المحاضرة ، وكانت لهم جَوَلات في مساجد البصرة والكوفة ، حيث كانت تُؤثر عنهم الحكمة وتروى العظة ، ويُتناقل البيان الرفيع .

وأما القصاص فقد كانت صناعتهم تقتضيهم العناية بقوة البيان وحسن الأداء ، وكانوا ذوى فصاحة وبلاغة ، فمنهم: موسى بن سيار الأسوارى « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ

(٢) ١ : ٢٩١ .

(١) ١ : ٢٩٠ .

(٤) انظر الجزء الثانى .

(٣) ١ : ٢٧٤ ، ٢٩٧ .

الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية ، فلا بُدري بأى لسان هو أبين ^(١)»

لذلك ولهذا عقد الجاحظ بابا لذكر النساك والزهاد من أهل البيان ^(٢) ، وآخر لذكر القصاص ^(٣) كما روى طائفة من كلام النساك ^(٤) ومقطعات من كلام القصاص ^(٥) ، كما خصص في الجزء الثالث من الكتاب بابا كبيرا في الزهد ساق فيه مواعظ عيسى وداود عليهما السلام ، ومواعظ الحسن وعمر وآخرين من النساك ، ومن زهاد البصرة والكوفة . وأتبع ذلك بمختارات من دعاء السلف الصالح ، والأعراب والنساك .

النوكى والحمقى :

والجاحظ ذلك المرح الضاحك ، لا يفتأ يعجب الناس من هذا الخلق الطريف ، أولئك الذين شاء الله أن يكونوا مصدر عيرة وموعظة ، كما شاء أن يكونوا مصدر عزاء وتسرية عن النفس . هؤلاء النوكى والحمقى قد يتفق لبعضهم من البيان الساخر ، ومن التبيين العجيب ، ما يكون في الصدر المقدم من حسن التعبير وجميل التعليل ، كما يتفق لبعضهم أن يريد البيان فيخطئ خطأ ظاهراً أو خفياً ، فيكون كلامه غواراً جديراً بأن ينبه الجاحظ على التحذير منه ، وبأن يكشف عما به من خلل ومجانبة للصواب ، كما صنع في باب العى . وهو يروى في الجزء الثانى وفى الجزء الثالث طائفة من أخبارهم وأقوالهم ؛ ليكون فى ذلك ترويح عن نفس المتصفح ، ونفع له فى بيانه وعبارته ، وهدى له أن يضل السبيل . ويستطرد الجاحظ فيما يستطرد فيلحق بهؤلاء النوكى والحمقى طائفة خاصة من المعلمين ^(٦) ، لا يلبث أن يستثنى منهم

(٢) ١ : ٣٦٢ .

(١) ١ : ٣٦٨ .

(٤) ١ : ٢١٠ .

(٣) ١ : ٣٦٧ .

(٦) ١ : ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

(٥) فى الجزء الثانى .

جماعة من جلة المعلمين والمؤددين .

الاختيارات :

والجاحظ بين الفينة والأخرى يوشع كتابه بالجيد المتخير من النثر والشعر ، ولا سيما في الجزأين الثاني والثالث ، حيث تطالعك الأبيات الحسان والفقر المستملحة . فمنها ما يكون شاهداً لما ينبغي أن يدعمه ويؤيده من قضايا البيان ، ومنها ما يرويه ليكون للحفظ والمذاكرة . وقد روى طائفة من مختارات المراثي ، ومن الخمریات ومن هجاء البرامكة ومدحهم ، ومما قيل في الشيب ، ومما حوى الحكمة والزهد ، وروى كذلك كثيراً من أقوال الأعراب ونوادرهم ، وطائفة من أدب بني العباس ومجموعة من قصار الخطب وطواها ، ومتنخل الرسائل والوصايا ، كما سبق القول .

هذه صورة لست أراها كاملة التكوين مستوفية الوضوح ، ولكنها تقرب الكتاب إلى قارئه تقريباً ، وتخط الخطوط الرئيسة التي يستطيع بها أن يتتبع ما يحوى الكتاب من فن .

٤ — أثر الكتاب

لعل من نافلة الكلام أن أردد القول في عظيم أثر هذا الكتاب . ويمكنني أن أقول في ثقة : إنه ليس يوجد أديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه . وقلماً تجد أديباً من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب . كما كان من هذا الكتاب مادة غزيرة استمدّها كبار المؤلفين القدماء في مؤلفاتهم كابن قتيبة ^(١) في عيون الأخبار ، والمبرد ^(٢) في الكامل ، وابن عبد ربه ^(٣) في العقد ، والعسكري ^(٤) في الصناعتين ، والحصري ^(٥) في زهر الآداب وجمع الجواهر ،

(١) سنة ٢١٣ — ٢٧٦ .

(٢) سنة ٢١٠ — ٢٨٦ .

(٣) ٢٤٦ — ٣٢٨ .

(٤) توفي بعد ٣٩٥ .

(٥) توفي سنة ٤٥٣ .

وابن رشيق ^(١) في العمدة ، وعبد القاهر الجرجاني ^(٢) في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وأسامة بن منقذ ^(٣) في لباب الآداب .

٥ - تاريخ تأليفه

ذكرت طرفاً من ذلك في مقدمة الحيوان ^(٤) ، وسقت الدليل على أن الجاحظ ألفه في أخريات حياته ، حين علت به السن وقعد به المرض ، وذكرت أيضاً أنه ألفه بعد كتاب الحيوان ؛ إذ أننى عثرت على نصّ قاطع في البيان والتبيين يدل على ذلك ، وهو قوله : « كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادير الأشعار لما ذكرت من عجبك بذلك ، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله » .

ومن المعروف أن الجاحظ أهدى كتاب البيان والتبيين إلى القاضي أحمد بن أبى دواد ^(٥) ، كما أهدى من قبله كتاب الحيوان إلى الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ ، وكتاب الزرع والنخل إلى الكاتب إبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ ، وأن كلا منهم أعطاه خمسة آلاف دينار ^(٦) .

والذى يعيننا من هؤلاء هو القاضي أحمد بن أبى دواد . كان أحمد من بلغاء الناس وفصحائهم وشعرائهم ، وكان قد برع في الفقه والكلام حتى بلغ ما بلغ وكان من أصحاب واصل بن عطاء المعتزلى ، فصار بذلك إلى الاعتزال ، وكان ذا حظوة عند المأمون ، وقد أوصى به أخاه المعتصم ، فلما صارت الخلافة إليه جعله قاضى القضاة بعد أن عزل يحيى بن أكرم . ولما مات المعتصم وتولى ولده

(٢) توفى سنة ٤٧١ .

(٤) مقدمة الحيوان ص ٢٦ .

(٦) إرشاد الأريب (١٦ : ١٠٦)

(١) ٣٩٠ - ٤٦٣ .

(٣) ٥٨٤ - ٤٨٨ .

(٥) ١٦٠ - ٢٤٠ .

الواثق حسنت حال أبي دواد في أول خلافته ، فقلد المتوكل ولده محمد بن أحمد القضاء مكانه ، ثم عُزل وقلد يحيى بن أكرم ثانية ، وتوفي أحمد سنة ٢٤٠ ، وكان بين محمد بن عبد الملك وبين أحمد بن أبي دواد منافسة شديدة ، وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد للعداوة كانت بين أحمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ ف قيل له : لم هربت ؟ فقال : « خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور ! » . يريد ما صنع بمحمد وإدخاله تنور حديد فيه مسامير ، كان هو صنعه ليعذب الناس فيه ، فعذب هو فيه حتى مات

ويروى ياقوت ^(١) ، أنه بعد قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيداً إلى مجلس ابن أبي دواد ، فجرت بينه وبين القاضي محاورة انتصر فيها الجاحظ ، وكان من عاقبتها أن رضى عنه ابن أبي دواد وأجازه وقربه إلى نفسه .
وهذا الخبر يعين لنا أن كتاب البيان والتبيين لم يظهر إلا بعد سنة ٢٣٣ ، وهي السنة التي قتل فيها ابن الزيات .

٦ - نسخ الكتاب

النسخة الأولى والنسخة الثانية :

يذكر ياقوت ^(٢) أن كتاب البيان والتبيين نسختان : « أولى وثانية ، والثانية أصح وأجود » . فيشتد سؤال الأدباء : أين أولاهما وأين الأخرى ؟ وكان من صنع الله حينما اتجهت إلى معارضة أصول الكتاب بعضها ببعض ، أن تبين لي في أثناء ذلك أن نسخة مكتبة كوبرلي ، هي أصح نسخة من أصول الكتاب ، ولحظت أيضاً أنها كثيراً ما تنفرد ببعض النصوص والعبارات ، التي لا توجد في

(١) إرشاد الأريب (١٦ : ٧٩) .

(٢) إرشاد الأريب (١٦ : ١٠٦) .

سائر النسخ ، أو توجد ولكن بعبارة أخرى مخالفة . كما أن سائر النسخ كثيراً ما تتفق في ذكر نصوص وعبارات لا نجدها في نسخة كويريل ، أو نجدها ولكن بصورة أخرى . ومهما يكن من شيء فلا ريب عندي أن نسخة كويريل هي أصح النسخ وأوثقها وأوفرها نصاً ، ونستطيع أن نترجم هذا بأن القائم لدينا من أصول الكتاب نسختان : إحداهما نسخة كويريل ، والأخرى ما عداها من النسخ التوائم التي قلما تشذ واحدة منها عن الأخرى (١) .

وصف المخطوطات :

جعل الجاحظ كتابه هذا في ثلاثة أجزاء ، كما نص على ذلك في أول الجزأين الثاني والثالث . وقد توافر لي من نسخ الكتاب أربع مخطوطات : (الأولى) : نسخة مكتبة كويريل (٢) المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم (٤٣٧٠ أدب) ، المرموز لها بالرمز (ل) . وهذه النسخة المصورة في أربع مجلدات أصلها المخطوط جزءان اثنان ، ولكنها مع ذلك تنبّه في آخر كل جزء من تقسيم الجاحظ على أنه قد انتهى وابتدأ الذي يليه . والجزء الأول في ٣٥٦ صفحة والثاني في ٣٥٥ ، وفي كل صفحة ١٧ سطراً ، وبكل سطر نحو عشرين كلمة . وهذه النسخة القديمة مكتوبة بخط جميل وضبط دقيق . وفي نهايتها : « كمل السفر الثاني ، وبتمامه تم الكتاب بأسره بفضل الله وعونه . والصلاة على سيدنا محمد وآله في الجمعة سابع المحرم بن سنة أربع وثمانين وستمائة . علقه الفقير إلى الله أحمد بن سلامة بن سالم المعري » .

(١) نجد أيضاً أن افتتاح نسخة كويريل وحدها « الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » ، أما سائر النسخ فتتفق في أن افتتاحها « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على محمد النبي الكريم وسلم ، عونك اللهم وتيسرك » .

(٢) نص خاتم وقف هذه المكتبة « هذا مما وقفه الوزير أبو العباس أحمد بن الوزير أنى عبد الله محمد ، عرف بكويريل ، أقال الله عثاره ١٠٨٨ » .

(الثانية) : نسخة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم (٤٧١ أدب) وهي المرموز لها بالرمز (ب) وهي في مجلد واحد يقع في ٧٠٠ صفحة بكل صفحة واحد وعشرون سطرًا ، وبكل سطر نحو ١٣ كلمة ، وهي مكتوبة بالخط الفارسي الجميل وليس بها ضبط ، وعنوانها عجيب « كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن يحيى (كذا) الجاحظ وهو كتاب جيد النظم والنثر الموضوع على منوال كامل المبرد (كذا) بل يفوق عليه حسنًا وبلاغة » . وكتب في صدرها أيضاً « فيما صار نسخه بالمدينة المنورة على ذمة الكتبخانة الخديوية . ومضاف فيماه مايو سنة ١٨٨٢ » . وكلمة « فيماه » مكونة من « في » العربية ، و « ماه » الفارسية التي بمعنى شهر ، فتاريخ هذه النسخة يرجع إلى سنة ١٢٩٩ الهجرية .

(الثالثة) : نسخة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم (١٨٧٢ أدب) وهي المرموز إليها بالرمز (ج) وهي في مجلد يقع في ٥٧١ صفحة بكل صفحة واحد وعشرون سطرًا ، وبكل سطر نحو ١١ كلمة . وهي مكتوبة بالخط المعتاد وليس بها ضبط ، ولكن بها أثر قراءة وتصحيح ، وبعض كتابات ذاهبة في الندرة بخط المغفور له العلامة محمد محمود بن التلاميذ التركي الشنقيطي ، وقد ألصق بآخرها ورقة بها تعليقات فهرسية لمواضع متفرقة من الكتاب بخطه أيضاً . وفي خاتمة هذه النسخة : « وكان الفراغ من كتابه هذا الكتاب يوم الخميس المبارك الموافق ١١ محرم الحرام سنة ١٣٠٩ ثلاثمائة وتسعة بعد الألف ، على يد كاتبها الفقير راجي عفو الكريم ، محمد سليم » .

(الرابعة) : نسخة المكتبة التيمورية المحفوظة برقم (٤٩٨ أدب) ، وهي في مجلد واحد به ٥٨٨ صفحة مكتوبة بالخط الفارسي المعتاد ، وبكل صفحة ١٩ سطرًا وبكل سطر نحو ١٧ كلمة ، وبهامش هذه النسخة تعليقات كثيرة

بخط الناسخ وكتب في صدرها : « من كتب الفقير عبد السلام المويلحي في ٢ رجب سنة ١٢٨٥ » ، وهذه النسخة مجهولة التاريخ ، وبها عدة أسقاط قيد موضعها في أول الكتاب العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا . وتبلغ هذه الأسقاط نحو ٢٠ صفحة من مواضع متفرقة .

الطبعات السابقة :

(١) النشرة الأولى في مجلدين في ٢٢٢ صفحة و ١٩٠ صفحة ، وذلك بالمطبعة العلمية من سنة ١٣١١ — ١٣١٣ ، عني بها حسن أفندي الفاكهاني إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول ، وباقى الكتاب بعناية الشيخ محمد الزهرى الغمراوى ، وهذه النشرة مجردة من الضبط ، وبها تعليقات يسيرة في الجزء الأول فقط .

(٢) النشرة الثانية في ثلاث مجلدات في ٢١٨ صفحة ، ١٩٦ صفحة ، ٢٣٦ صفحة . وذلك في مطبعة الفتوح ومطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ . أشرف عليها الأستاذ الكبير السيد محب الدين الخطيب ، ونجد في نهاية الجزء الثالث : « وكتب بعض حواشى هذا الجزء إبراهيم بن محمد الدجمنى الأزهرى ^(١) ، عُفى عنه » . وهذه الطبعة بها قليل من الضبط وقليل من التعليق ، وتمتاز عن سابقتها بالإشارة إلى بعض روايات النسخ المخطوطة ، وبما يجدر ذكره أن تلك النسخ المخطوطة غير معينة .

(٣ ، ٤) النشرة الثالثة والرابعة ، صنع الأستاذ الجليل حسن السندوى ١٣٤٥ ، ١٣٥١ وكل منهما في ثلاث مجلدات ، وتمتاز الرابعة بكثرة التعليقات والتراجم ، وألحق بهما بعض الفهارس .

هذا وقد طبع كتاب عنوانه « منتخبات من البيان والتبيين » يقع في

(١) كان غفر الله له من أعلام أدباء الأزهر ، وقد تلمذت له عاما في الأزهر سنة ١٣٤٠ . ومن آثاره شرح ديوان الحماسة المنسوب للرافعى ؛ ونشرة من كامل المبرد .

ثمانين صفحة ، وذلك بمطبعة الجوائب ١٣٠١ ثم بمطبعة الرغائب ١٣٢٨ . وكتاب آخر عنوانه « مختار البيان والتبيين » باعثناء الأديبين : خليل بيدس ، وشريف النشاشيبي ، وهو في ٢٤٨ صفحة طبع بمطبعة بيت المقدس سنة ١٩٣٣ الميلادية .

٧ — تحقيق الكتاب

عندما فرغت من تحقيق تلك المَعْلَمة الكبيرة ، أعنى كتاب الحيوان ، رأيت أن أتمس شيئاً من الهدوء والروح ، إثر ذلك المجهود العاقي ، ولكن تلك الرغبة الملحة في بعث مكتبة الجاحظ، وهي رغبة توشك أن تكون جهاداً، حملتني أن أدخل في الميدان كرة أخرى ، استجابة لدعوة النفس ، وتلبية لإرادة صديق كريم أثير لدى، هو الأستاذ « عبد السلام محمد الناظر » ، الذي سعدتُ بأخوته وزمالاته زهاء ربع قرن قضينا منها ثمانى سنين جنباً إلى جنب زمانَ الطلب بدار العلوم ، فقد أَرَادَنِي عَلَى أَنْ أعجل بوفاء ما وعدت به من قبل ، فكان بتلك الرغبة الكريمة وبما أخذ على عاتقه من المشاركة في نفقات الطبع، صاحب فضل عظيم في ظهور هذه النشرة الحديثة من البيان التي جعلت إهداءها إليه .

وكان الأدباء من قبلُ يجدون كثيراً من العسر ، ويلمسون كثيراً من الاستغلاق ، الناجم عن تحريف النصوص وتصحيفها ، وقلة التعرض لبيان ما بها من إشارة ، وحل ما فيها من رموز ، فلما شرعت في تحرير هذا الكتاب هالني ما رأيت في الطبعات السابقة من تحريف وتشويه ، مع أن الذين تولوا هذه النشرات علماء فضلاء ، ذلك أنهم لم يعنوا بدراسة الأصول المخطوطة دراسة متصلة ، ولم يراعوها مراعاة تامة ، فلم يسعفهم فضلهم الواسع بإخراج النسخة القريبة من السلامة ، أما نسختنا هذه فقد عورضت على المخطوطات التي أسلفت وصفها في الفصل السابق وصنعت — فيما نرى — على ما تقتضيه أساليب النشر الحديث ، وأعدت لها الفهارس الكاشفة عن خباياها وما بها من خير كثير .

وقد اتخذت نسخة كويريلي أصلاً لهذه النشرة ، منهاً على ما بينها وبين سائر النسخ من خلاف . وما كان من زيادة في سائر النسخة على سائر النسخ لم أنبه عليه . وهو كثير ، وما كان من زيادة في سائر النسخ أضفته بين معقفين : [] ونهت عليه . على أنني فيما بعد صفحة ٢٩٤ من هذا الجزء قد أضربت عن هذا التنبيه ؛ تجنباً للإسهاب ، وجعلت وضع الكلمة بين المعقفين دليلاً على أنها من سائر النسخ ، وقد أثبت أرقام نسخة الأصل على جوانب الصفحات مكثفاً بذكر الصفحات عن ذكر رقم الجزء ؛ فإن الجزء الثاني من الأصل إنما يبدأ في نحو منتصف الجزء الثاني من نشرتنا هذه ، وسأنبه على ذلك في حينه .

وعُني بضبط الكتاب محققاً ما به من الألفاظ الغريبة والكلمات الفارسية والبصرية ونحوها ، كما عني خاصة بتحقيق الأعلام وترجمتها على ما في ذلك من عسر شديد وجهد جهيد ، فقد أُرِيت الأعلام المترجمة في هذا الجزء فقط على الأربعمائة والأربعين ، وبذلت العناية في تحقيق النصوص وتحريرها ، ونسبة الشعر إلى قائله ، منهاً على المراجع من الدواوين وغيرها من كتب اللغة والأدب والتاريخ والسِّيَر والحديث والتفسير والقراءات .

وأما تقسيم الكتاب فقد أبقيته كما صنع الجاحظ ، ثلاث مجلدات ، لم أحدث فيه تغييراً ، ولم أضف إليه شيئاً من العناوين .

وقد شك بعضهم في التفسيرات اللغوية التي وردت في صلب الكتاب ، فظن أنها من زيادات القراء والناسخين ، وقد فاته أن الجاحظ قد عمد إلى تفسير كثير من لغات كتابيه : الحيوان ، والبيان . ويجد القارئ في ثنايا الحيوان كثيراً من التفسيرات والنصوص اللغوية التي تناقلها اللغويون ورووها عن الجاحظ . ولقد استطعت أن أستخرج فهرساً كبيراً للمواد اللغوية الجاحظية في كتاب

الحيوان ، وقع في نحو ٢٧ صفحة ^(١)، لذلك حافظت على هذه النصوص وأبقيتها في مكانها من صلب الكتاب .

٨ - الفهارس

وستضاف إلى الكتاب فهارس تقتضيها طبيعته ، وهي :

- ١ - فهرس البيان والبلاغة
- ٢ - « الخطب .
- ٣ - « الرسائل والوصايا .
- ٤ - « الأشعار والأرجاز .
- ٥ - « الأمثال .
- ٦ - « اللغات .
- ٧ - « الأعلام .
- ٨ - « القبائل والأرهاب والطوائف .
- ٩ - « البلدان .
- ١٠ - « أيام العرب .
- ١١ - « معالم الحضارة .
- ١٢ - « الكتب

ويلحق بها من بعدُ جريدةٌ تعين المراجع والمصادر ، وطائفة من الاستدراكات العامة للكتاب .

اللهم منك نستمدّ التوفيق ، وبك نستعين ، وعليك نعتد . والحمد لله رب العالمين .

منشئة الصدر في صبيحة الاثنين ١١ شوال سنة ١٣٦٧ هـ
١٦ أغسطس سنة ١٩٤٨ م
عبد السلام محمد هارون

(١) انظر الحيوان (٧ : ٥٨٨ - ٦١٥) .

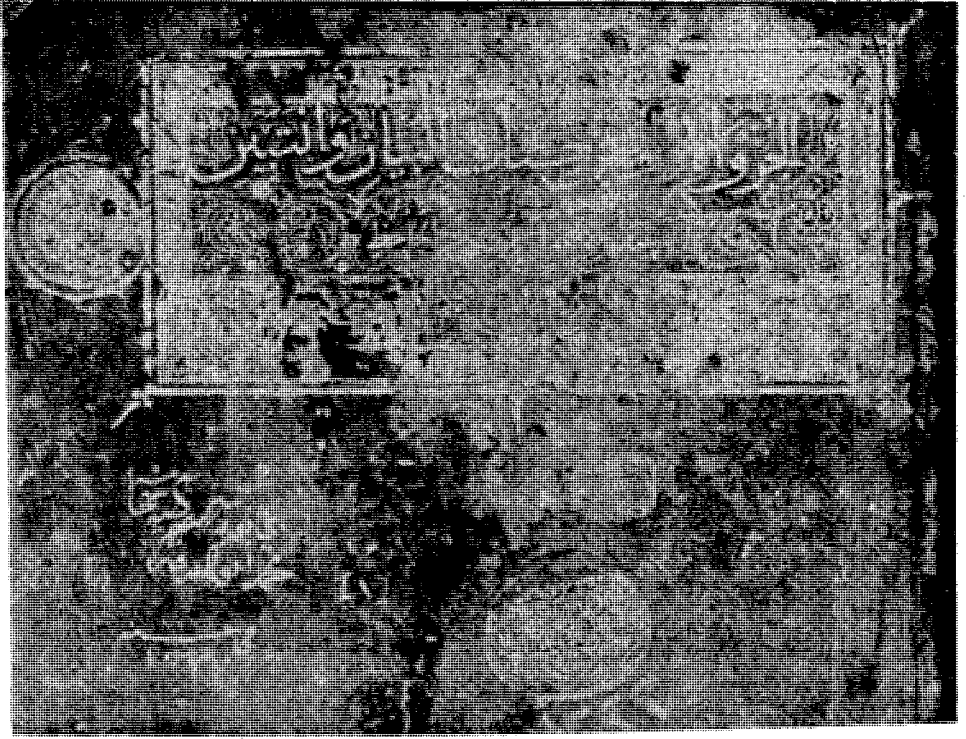
مقدمة الطبعة الثانية

كنت قد أشرت في أواخر الجزء الرابع من الطبعة الأولى أنني عثرت على نسخة خامسة من أصول الكتاب ، جلبها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من مكتبة (فيض الله) بالآستانة . ورقم هذه النسخة في المكتبة هو ١٥٨٠ ورقمها في المعهد ٨٨٧ وهي مخطوطة بخط أندلسي كتبها بخطه لنفسه محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن حجاج بن زهير اللخمي ، وهو نقلها من نسخة أبي زر بن محمد بن مسعود الحشني ، وعليها بخط أبي زر ما يفيد أن نسخة أبي زر منسوخة من نسخة أبي جعفر البغدادي . ونسخة أبي جعفر هذه كتبت في غرة ربيع الآخر من سنة ٣٤٧ . وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (هـ) .

فكان من حظ هذه النشرة الثانية أن تظهر بمقابلة كاملة على نسخة مكتبة (فيض الله) . وبذلك امتازت هذه الطبعة بكثير من التصحيحات ، وتعديل في الشروح والتعليقات ، وبعض الإضافات الحديثة .

وقد وجدت اشتراك نسختي (ل) و (هـ) في كثير من الإضافات التي كنت قد وضعتها في النشرة الأولى بين علامتي الزيادة [] مقتبسة من نسخة (ل) فقط ، فلما وجدت هذا الاشتراك ساريا في الجمهور من هذه المواضع أغفلت وضع علامتي الزيادة في كل ما اشتراك فيه ؛ لما وضع لي أنهما أصلان عظيمان من أصول الكتاب .

وقد أدخلت في أصول الكتاب وحواشيه ما كان قد عنّ لي من تصحيحات ، وما ظهر لي من صواب أخطاء الطبع ، فجاءت هذه النشرة أصح من سابقتها وأدنى إلى الكمال الذي ينبغي . والحمد لله وحده .



صورة الصفحة الأولى من نسخة كوبريلي

تاريخ الادب
 عبد الله بن محمد
 في سنة ١٥٨٩

تستكمل هذا السفر على جميع كتب الطبرستان
 كتابه في ضمن غرض من غرضه
 في سنة ١٥٨٩

في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩

د اتمل الكتب المهمة في الادب ابو عمرو وتذكر في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩

في سنة ١٥٨٩

في سنة ١٥٨٩

في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩
 في سنة ١٥٨٩

١٥٨٠



وَأَمَّا الْبُيُوتُ فَكَانَتْ مَقَرًّا لِلْمُنَافِقِينَ
وَالَّذِينَ فِيهَا مِنْ نَجَسٍ ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا عَلَيْنَا
فِي هَٰذِهِ السَّاعَةِ أَوْ فِي سُنَّتِهَا إِنَّهُمْ كَانُوا
مُتَكِبِينَ

[illegible]